**المحاضرة الثامنة**

**نظرية التخييل عند القرطاجني**

**حازم القرطاجني:**

هو أبو الحسن حازم القرطاجني، ولد سنة (608ه/ 1211م) بقرطاجنة وإليها نسب. تربى في أسرة ميسورة الحال ما وفّر له فرصة الإقبال على العلم، فبدأه بحفظ القرآن الكريم، ثمّ تعلّم قواعد اللغة، والنحو، والفقه، والعلوم الشرعية، والفلسفة. هاجر ككثير من مواطنيه بعد توالي هزائم المسلمين في الأندلس ناحية مراكش بالمغرب الأقصى، ومنها توجه إلى تونس حيث توفي سنة (684ه) تاركا إرثا فكريا محترما. أخذ القرطاجني حبّ الفلسفة والبحث بآلياتها عن تلميذ تخرّج من مدرسة ابن رشد الأندلسية وهو أبو علي الشلوبين (562ه/ 645ه).

اشتهر حازم القرطاجني بكتابه الموسوم ب: (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، وهو من أبرز كتب النقد ببلاد المغرب الإسلامي خاصة، والنقد القديم عامّة.

والكتاب موضوع بالأساس قصد التنظير للشعر على مستويي النظم والتلقّي. وهو موزّع على مناهج، كل منهج يضم فصولا دعاها: (معلم) أو (معرف) على التوالي. والمعالم والمعارف قسّمت بدورها إلى فقر سمّاها حازم (إضاءة) أو (تنوير) بشكل متناوب.

ويعود سبب تفرّد القرطاجني عن سابقيه من النقاد الفلاسفة، إلى اقتناعه ووعيه بالفروق الواقعة بين الأدبين اليوناني والعربي، لأنّ ''جلّ أشعارهم –حسبه- على خرافات كانوا يضعونها يفرضون فيها وجود أشياء وصور لم تقع في الوجود، ويجعلون أحاديثها أمثالا وأمثلة لما وقع في الوجود... وكانت لهم طريقة أيضا -وهي كثيرة في أشعارهم- يذكرون فيها انتقال أمور الزمان وتصاريفه، وتنقل الدول وما تجري عليه أحوال الناس وتؤول إليه''.

**التخييل في نظر القرطاجني:**

أكد القرطاجني أن فنّ الشعر عائد إلى عنصر التخييل. يقول في حدّ الشعر: ''الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك. والتئامه من مقدمات مخيلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها - بما هي شعر- غير التخييل''.

فالاعتبار في الشعر إنّما هو ''التخييل في أيّ مادّة اتّفق، لا يشترط في ذلك صدق ولا كذب، بل أيّهما ائتلفت الأقاويل المخيّلة منه فبالغرض. لأنّ صنعة الشاعر هي جودة التأليف وحسن المحاكاة، وموضوعها الألفاظ وما تدلّ عليه''.

وتحقيق تلك الغاية مرتبط ''بما يتضمن (أي الشعر) من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو شهرته، أو بمجموع ذلك''.

فالتخييل مصدر الشعر وعموده وسبيل تشكّله، وذلك بما يقوم به من مخالفة للحقيقة/ المألوف دون أن يمسّ بجوهرها، فعمله هو أن ينزاح بما هو معهود إلى عكسه، امتثالا لرغبة النفوس التي تتحرّك لما هو غير معتاد.

والخيال غير الكذب، لأنّ مهامّه لا تتحقق إلّا في حالة ارتباطه بالممكن، يقول القرطاجني: ''فإذا كانت صور الأشياء قد ارتسمت في الخيال على حسب ما وقعت عليه في الوجود وكانت للنفس قوة على معرفة ما تماثل منها وما تناسب وما تخالف وما تضاد، وبالجملة ما انتسب منها إلى الآخر نسبة ذاتية أو عرضية ثابتة أو منتقلة أمكنها أن تركّب من انتساب بعضها إلى بعض تركيبات على حدّ القضايا الواقعة في الوجود التي تقدّم بها الحسّ المشاهد''.

فالشعر شعر بما فيه من تعابير مجازية تتجاوز الحقيقة، دون أن تتعداها، وهذا ما عبّر عنه القرطاجني بالمحاكاة التخييلة، قاصدا بالعناصر التخييلية التقنيات الإبداعية التي تقدّم المحاكاة تقديما شعريّا يمكّن المتلقي من النص، لذلك جعلها من جوهره، ومن متطلباته لتعلّق الإنسان بها وشغفه بما تقدّمه، فللنفوس - كما ذكر-: ''تحرّك شديد للمحاكيات المستغربة، لأنّ النفس إذا خيّل لها في الشيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله وجدت من استغراب ما خيّل لها ممّا لم تعهده في الشيء ما يجده المستطرف لرؤية ما لم يكن أبصره قبل وقوع ما لم يعهده من نفسه موقعا ليس أكثر من المعتاد المعهود''.

غير أنّ القرطاجني، وبالنظر إلى تردّي أوضاع الشعر في زمنه، أبقى على دور التفكير والعقل في عملية الإنتاج الشعري، وذلك بحديثه عن قواعد النظم وخطواته، وهي عشر مراحل، حيث يضع الشاعر معانيه مرتبة بعد أن يتصوّر كلّيات عمله الفنّي من حيث الموضوع والأسلوب، حتى يكون الوصف بالأشياء التي تدرك بالحسّ، أو التي يتصوّر إدراكها. قال مفرّقا بين الممتنع والمستحيل: ''الفرق بين الممتنع والمستحيل هو أن المستحيل لا يمكن وجوده ولا تصوره في الوهم مثل كون الشيء أسود أبيض وطالعا نازلا في حال واحدة. والممتنع هو ما يمكن تصوره في الوهم وإن لم يمكن وجوده مثل أن يتصور تركيب بعض أعضاء نوع من الحيوان على جسد نوع آخر''.

لقد عالج القرطاجني قضية التخييل في الشعر بمنطلقات فلسفية، مكّنته من التعمق في جوهره وقيمته، دون أن يقع في إشكالية الكذب والصدق، فقد تمكّن من صوغ فكرته عن عدم تعارض الشعر مع الواقع بجملة القوانين التي حفّ بها الخيال، والتي نجم عنها معادلة متساوية الأطراف لا تناقض فيها بين مقولتي: أعذب الشعر أصدقه، وأعذب الشعر أكذبه، ما دام الكذب / الخيال فيه غايته تبليغ رسالة واقعية في قالب ملوّن بشتى الألوان البديعية والبيانية.

**المصادر والمراجع:**

1- القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981.

2- عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، الجنادرية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2009.

3- جابر عصفور: مفهوم الشعر، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1424ه، 2003م.

4- سعد مصلوح: حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر، ط1، مطبعة دار التأليف، القاهرة، مصر، نشر عالم الكتب، 1400ه، 1980م.

5- محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دار الرسالة، ط2، 1420ه، 1981م.